السنة 3 لسانيات عامة الفوجان: 7 + 11 السداسي 5

المقياس: مدارس نحوية أعمال موجّهة

أ. غ شيباني

هذه مقدّمات التّحليل والنّقد

السنة 3 الفوجان 7 + 11
لسانيات عامة

من كتاب:
المدارس النحوية
أسطورة و واقع
أ.د. إبراهيم السامرائي

المطلوب: تلخيص الموضوع ثم نقده

ألنا مدارس نحويّة؟

لقد حلا للدارسين في عصرنا كلمة «المدرسة» فذهبوا بها مذهباً قد لا يرضي العلم. إن هذه «الكلمة» العربية قد عرفناها كلمة تاريخية استعملها المسلمون في عصور حضارتهم فكان من ذلك المدرسة النظامية في بغداد، فالمدارس النظامية في أمصار أخرى، والمدرسة المستنصرية ومدارس بلاد الشام ومدارس مصر والمدارس الأخرى في سائر البلاد الإسلامية. وهذه المدارس مدارس حقيقية ينتسب إليها طلاب العلم فيدرسون العلوم المختلفة.

ثم جاء العصر الحديث فصار العرب يتطلعون إلى ما عند الغربيين من علوم ومعارف، وقد وجدوا أن الغربيين تجاوزوا في استعمال «المدرسة» المألوف المعروف فكانت لديهم مثلاً المدرسة الكلاسيكية في الأدب والفن والمدرسة الرومانتيكية، والمدرسة الرمزية والمدرسة الطبيعية وغير هذا.

وتعني هذه المدارس الغربية ما نعنيه نحن في كلمة «مذاهب» كمذاهب الفقه الإسلامي المعروفة نحو مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الشافعي وسائر مذاهب أهل السنّة ~~ومذاهب الشيعة كالمذهب الجعفري~~. ولكل مذهب من هذه المذاهب طريقة خاصة تقوم على نظر خاص ودلائل خاصة.

ومثل هذا مدارس الغربيين في الأدب والفن التي أشرنا إليها، فهي مذاهب خاصة لها قواعدها وأصولها وأسسها الخاصة التي تختلف كل الاختلاف في أي منها عن الأخرى. وقد استعاروا لهذه المذاهب كلمة «School» الإنكليزية أو «Ecole» الفرنسية أو نظائرهما في سائر اللغات الغربية. والأخذ عن الغربيين في عصرنا طريف ممتع، وقد نندفع في هذا الأخذ بحق وبغير حق حرصاً على الاستجابة إلى العصر بحجة «المعاصرة» واحترازاً من أن يوصم الدارس بالجمود والرجعية ونحو ذلك. وهذا النوع من «التلقي» قد يحمل الضيم على العلم.

أقول: نظر أصحابنا إلى الموروث من علم النحو واختلاف الأوائل في شيء يسير منه يمس الفروع ولا يقرب من الأصول، فأخذوا بالسعي نحو «المعاصرة» فأخذوا لفظ «المدارس» لتؤدي ما شاع لدى الأوائل من استعمال «مذاهب» أو «طرائق». وكان من ذلك: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد، وتوسع آخرون فكان لهم مدرسة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن ذلك مدرسة الشاميين في النحو، ومدرسة المصريين، ومدارس إفريقية في تونس والمغرب ومدرسة الأندلسيين. ولا أستبعد أن يبلغ الهوى بأحد من قبيل هؤلاء الدارسين فيزعم أن للموصليين «مدرسة» في النحو وأن للبلاد التي أظلها الإسلام بظله «مدارس» في هذا العلم.

ولنعد إلى المشهور قديماً من المذاهب النحوية لنقول إننا كنا نجد في كتب طبقات النحويين، وفي كتب النحو ومصادره أن هذا الرأي قال به البصريون، وأنكره الكوفيون، وقد نجد أن فلاناً من النحاة على «مذهب» البصريين، وأن فلاناً على مذهب أهل الكوفة. وقد نجد أحياناً أن «البغداديين» ذهبوا مذهباً خاصاً. ولا نعرف على وجه من العلم الثابت من هؤلاء البغداديون، فقد تجد فيهم ثعلب وابن قتيبة وابن السكيت وغير هؤلاء. والتحقيق في هذا أن عبارة «البغداديين» تعني

«الكوفيين» وذلك لأنهم عُرِفوا في بغداد وشاع علمهم في بغداد.

وكنا قد عرفنا أن البصريين قد اعتمدوا في تأسيس نحوهم على الثابت من كلام العرب وشعرهم في الجاهلية والإسلام إلى عصر معين لا يتجاوزونه إلى غيره، وهذا كله معروف في المصادر التي عرضت للرواية، واعتمدوا على القرآن في قراءاته العالية كما اعتمدوا على الثابت المؤيد سماعاً أكيداً من أمر اللهجات واللغات الخاصة، واتخذوا القياس طريقاً يتبعونه اتباعاً يغلب على السماع.

وبهذا كتبوا النحو فكان لنا منه مصادر استوفت أبواباً وافية في المادة النحوية والصرفية قائمة على هذه الأصول متوسعة في الفروع والأساليب. وقد أثر أن للكوفيين أصولاً ومصادر هي:

١ ـ النحو البصري:

لقد عرفنا أن الفراء أفاد: أن أبا جعفر الرواسي (من أوائل الكوفيين) كان يلتقي أبا عمرو بن العلاء ويسأله[١]. وأن الكسائي قد لقي في البصرة يونس بن حبيب وجرت بينهما مسائل أقَرّ له يونس فيها وصدّره في موضعه[٢]. وأنه درس كتاب سيبويه على الأخفش[٣]. وأن الفرّاء قد وقف على كتاب سيبويه أيضاً وعرفه، ومات وتحت رأسه «الكتاب»[٤].

٢ ـ لغات الأعراب:

وهذا يعني أن الكوفيين توسعوا في الأخذ عن الأعراب والقبائل التي لم يأخذ عنها البصريون وهم في جوار الكوفة من تميم وأعراب الحطمة في سواد بغداد.

---

(١) إنباه الرواة ٤/٩٩.

(٢) نزهة الألباء ص ٥٩.

(٣) مراتب النحويين ص ١٢٠ وطبقات الزبيدي ص ٧٣.

(٤) مراتب النحويين ص ١٣٩، معاني القرآن ٢/٣٧.

ويقول أبو الطيب اللغوي إن الفراء أخذ عن أعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي ثروان وغيرهما[1].

٣ ـ الشعر القديم:

٤ ـ القراءات:

أقول: وهذه المصادر التي تنسب إلى الكوفيين هي نفسها مصادر البصريين مع شيء يسير من الاختلاف كأن يتوسع الكوفيون في الأخذ عن الأعراب، وأن يغلّبوا المسموع على المقيس خلافاً للبصريين، أو أنهم توسعوا في الاعتماد على القراءات وما يعرض لها من مسائل لا ترد كثيراً في المسموع المشهور.

وقد قيل في اختلاف الكوفيين عن البصريين في الدرس النحوي أن الكوفيين ابتعدوا عن التعليل الذي يضرب إلى أصول في المنطق والفكر الفلسفي في تفسير الظواهر النحوية واللغوية. وكأن هذه المقولة تثبت أن البصريين يذهبون في تعليلهم وتأويلهم مذهباً قائماً على أصول في المنطق...

أقول: وهذه المقولة لا تستند إلى حقيقة واقعة والدليل على فسادها أنك تجد في «كتاب الإنصاف» لأبي البركات الأنباري من تعليل الكوفيين وتأويلهم ضروباً لا تتصل بالعلم اللغوي على نحو ما تجد من ذلك في تعليلات البصريين. وأنت واجد هذا في أغلب «المسائل الخلافية» التي جمعها الأنباري في هذا الكتاب.

وهذه المقولة قد أشاعها وأفصح عنها وجلّاها المعنيون بـ «مدرسة الكوفة» في عصرنا. ومن الخطأ في أسلوب هؤلاء الدارسين في عصرنا أنهم ذهبوا إلى أن نحو الكوفيين أصح نظراً وأسدّ فهماً من نحو البصريين، وربما ذهبوا إلى أبعد من هذا فزعموا أنه النحو المثالي الذي

(١) مراتب النحويين ص ١٣٩.

ص 143
ينبغي أن يكون هو المادة التي تدرس في عصرنا ويدلك يجب أن تضرب صفحا عن المألوف المتعارف عليه.

السنة 3 الفوجان 7 + 11

من كتاب :
المدارس النحوية
أ.د/ شوقي ضيف

المطلوب : تلخيص الموضوع ونقده .

الفصل الأول

البصرة واضعة النحو

١

أسباب وضع النحو

يمكن أن نردَّ أسبابَ وضع النحو العربى إلى بواعث مختلفة ، منها الدينى ومنها غير الدينى ، أما البواعث الدينية فترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحًا سليما إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة ، وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة ، وكان قد أخذ فى الظهور منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد رَوَى بعض الرواة أنه سمع رجلا يلحن فى كلامه ، فقال : « أرشِدوا أخاكم فإنه قد ضلَّ »[1] وروَوا أن أحد ولاة عمر بن الخطاب كتب إليه كتابًا به بعض اللحن ، فكتب إليه عمر : « أنْ قَنِّعْ كاتبك سوطًا »[2] . غير أن اللحن فى صدر الإسلام كان لا يزال قليلا بل نادراً ، وكلما تقدمنا مُنْحدرين مع الزمن اتسع شيوعه على الألسنة ، وخاصة بعد تعرب الشعوب المغلوبة التى كانت تحتفظ ألسنتها بكثير من عاداتها اللغوية ، مما فسحَ للتحريف فى عربيتهم التى كانوا ينطقون بها ، كما فسح للحن وشيوعه . ونفس نازلة العرب فى الأمصار الإسلامية أخذت سلائقهم تضعف لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة ، حتى عند بلغائهم وخطبائهم المفوَّهين ، ويكفى أن نضرب مثلا لذلك ما يُرْوَى عن الحجاج من أنه سأل يحيى بن يَعْمَر هل يلحن فى بعض نطقه ؟ وسؤاله ذاته يدلُّ على ما استقر فى نفسه من أن اللحن أصبح بلاء عامًّا ، وصارحَه يحيى بأنه

---

(١) كنز العمال ١/١٥١ .
(٢) الخصائص لابن جنى (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/٨ .

يلحن فى حَرْف من القرآن الكريم إذ كان يقرأ قوله عزّ وجلّ : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم) إلى قوله تعالى : (أحبَّ) بضم أحبّ والوجه أن تُقْرَأ بالنصب خبراً لكان لا بالرفع[١] . وإذا كان الحجاج وهو فى الذروة من الخطابة والبيان والفصاحة والبلاغة يلحن فى حَرْف من القرآن، فمَنْ وراءه من العرب نازلة المدن الذين لا يرقون إلى منزلته البيانية كان لحنهم أكثر . وازداد اللحن فشوًّا وانتشاراً على ألسنة أبنائهم الذين لم ينشأوا فى البادية مثلهم ولا تغذّوا من ينابيعها الفصيحة، إنما نشأوا فى الحاضرة واختلطوا بالأعاجم اختلاطاً أدخل الضيم والوهن على ألسنتهم وفصاحتهم على نحو ما هو معروف عن الوليد بن عبد الملك وكثرة ما كان يجرى على لسانه من لحن[٢] . وكان كثيرون من أبناء العرب وُلدوا لأمهات أجنبيات أو أعجميات ، فكانوا يتأثرون بهن فى نطقهن لبعض الحروف وفى تعبيرهن ببعض الأساليب الأعجمية[٣] . وكل ذلك جعل الحاجة تمسُّ فى وضوح إلى وضع رسوم يُعْرَفُ بها الصواب من الخطأ فى الكلام خشية دخول اللحن وشيوعه فى تلاوة آيات الذكر الحكيم .

وانضمتْ إلى ذلك بواعث أخرى ، بعضها قومى عربى ، يرجع إلى أن العرب يعتزُّون بلغتهم اعتزازاً شديداً ، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم ، مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها خوفاً عليها من الفناء والذوبان فى اللغات الأعجمية . وبجانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعية ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحست الحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية فى إعرابها وتصريفها حتى تتمثَّلها تمثلا مستقيماً ، وتتقن النطق بأساليبها نطقاً سليماً . وكل ذلك معناه أن بواعث متشابكة دفعت دفعاً إلى التفكير فى وضع النحو ، ولا بد أن نضيف إلى ذلك رقى العقل العربى ونمو طاقته الذهنية نموا أعدَّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلا تطَّرد فيه القواعد وتنتظم الأقيسة انتظاماً يهيئ لنشوء علم النحو ووضع قوانينه الجامعة المشتقة من

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبعة الخانجى) ص٢٢ . وانظر البيان والتبيين (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٢١٨.

(٢) البيان والتبيين ٢/٢٠٤ وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٥٨ ، ١٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/٧٢ ، ٢/٢١٠ .

13 ص

الاستقصاء الدقيق للعبارات والتراكيب الفصيحة ومن المعرفة التامة بخواصها وأوضاعها الإعرابية .

مدرسة الكوفة
ومنهجها في دراسة اللغة والنحو

د. مهدي المخزومي

ط ٢
١٣٧٧ - 1958م
مطبعة مصطفى البابي الحلبي
مصر

الموضوع : ماذا نستخلص من هذا العرض؟

تصدير

هذا بحث جامعيّ حديث ، في تاريخ النحو العربيّ القديم ، كتبه الدكتور « مهدي المخزوميّ » ، وقدّمه إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ ، ليحصُل به على درجة الدكتوراة ، من قسم اللُّغة العربية .

ولست أعلم بحثا نحويا استوفى مطالب البحث العلميّ الدقيق ، كما تحقّقته في هذا البحث ، الذي صدر عن كاتبه في أناة ودقة ، وطول تتبُّع ، واستقامة فكرة ، وأصالة منهج ، ووضوح نتائج ، وغزارة مادّة ، مع صفاء العبارة ، وإشراق الديباجة :

كان صاحب هذا البحث طالبا بكلية آداب القاهرة ، مبعوثا من العراق ، وكان متميزا بين زملائه وأقرانه بهدوء النفس ، وطول التأمُّل ، والرَّغبة الشديدة في التحصيل ، والعمل الجادّ بتوجيه الأساتذة ، وإرضائهم ببذل أقصى الجُهد في تحقيق الأغراض العلمية . ولم يزَل على جدّه ومُثابرَته ، حتى أحرز الليسانس ، فعاد إلى وطنه العراق برهة من الزمان . ثم رأيناه يعود إلى القاهرة ثانية ، ويستأنف دراسته العالية بهمة وعزيمة قويتين . وقد أعدّ في خلال مُقامه بالقاهرة في هذه المرّة بحثين ، بحثا للماجستير ، في « الخليل بن أحمد » أستاذ مدرسة النحو البصرية ، بإشراف الأستاذ « إبراهيم مصطفى » ، وبحثا للدكتوراة ، كنت المشرف عليه فيه .

وقد أحسن الدكتور « مهدي المخزوميّ » باهتمامه بتاريخ النحو العربيّ منذ نشأته الأولى ، وبتاريخه في القرن الثاني الهجري ، حين جعل « الخليلَ بن أحمد » رأس المدرسة البصرية ، موضوعا لبحثه الأوّل ، وحين جعل « مدرسة الكوفة النحوية » في القرن الثالث ، موضوع دراسته وبحثه الثاني .

ويمتاز هذا البحث الثانى بمزايا كثيرة . لابدّ من الإشارة إلى أبرزها وأقواها :

فمنها :

١ — الدقة العلمية الملحوظة : فى جمع الشواهد الكثيرة ؛ وتحليلها ؛ ونقدها ، واستخلاص النتائج منها . لم يفارق صاحبه هذا المنهج لحظة ، ولا غفَل عنه فى قضية من قضايا البحث الكثيرة ، ولم يعتسف الأحكام ، ولم يأت بنتائج ليس لها مقدّمات قوية مقنعة .

٢ — كما يمتاز بأنه أجمع بحث لتاريخ النحو الكوفىّ منذ نشأته وزمان قوّته ، حتى زمن ضعفه واندراس معالمه ، وتغلُّب المذهب البصرىّ عليه تغلُّبا تامًّا ، فى جميع الآفاق العربية ، شرقية ومغربية ، اللهمّ إلا بقية منه كانت لاتزال عالقة بأذهان نُحاة الأندلس ، منذ أُدخِل إليها كتاب الكسائى الصغير ، حمله جودىّ ابن عثمان النَّحوىّ الأندلسىّ ، فى رحلة له إلى المَشرق .

وكلّ راغب الآن فى تتبُّع حركة النحو الكوفىّ منذ نشأته فى القرن الثانى ، إلى نهاية القرن الرابع الهجرىّ أو بعدها بقليل ، لا يجد مرجعا أوفى ، ولا تاريخا أشمل وأدقّ : من هذا البحث الذى خدَم به الدكتور مهدىّ المخزومىّ اللُّغة العربية أجلّ خدمة ، وأحقها بالذكر .

٣ — ومن أهمّ مزاياه : أنه أنصف مدرسة الكوفة النحوية إنصافا علميا لم يُعْهَد له نظيرٌ من قبل فى كتب تاريخ النحو ، فقد كشف عن طبيعة الدراسة الكوفية : واعتمادها على الرّواية والنصوص العربية ؛ قرآنية وشعرية وغيرها ؛ أكثر من اعتمادها على الأقيسة النظرية المنطقية ، التى عوّل عليها البصريون فى مناهجهم . وطَرَدوا عليها قواعد النحو طردا عقليا صِرْفا ، لم يبالوا معه بما جاء من النُّصوص مخالفا لهذه الأقيسة العقلية ، المبنية على الأشهر الأغلب فى كلام العرب ؛ ووصفوه بالشذوذ ، وتأوّلوه على أنحاء شتى من التأويل .

وقد وازن المؤلّف بين آراء الفريقين ، وفضّل رأى الكوفيين فى كثير من مواضع الخلاف والجَدل بين المدرستين .

وقد كان دارسو النحو المتأخرون كلما مرّوا برأى كوفىّ فى كتب النحو البصرىّ نظروا إليه نظرة احتقار وإهمال ، واطراح وإغفال ؛ لافرق فى ذلك بين الأساتذة المُتنهين ؛ والطلاب المبتدئين ؛ لايميلون إلا إلى العمل بالمذهب البصرىّ ، لأنه الأشهر عند الدّارسين ، ولأن كتبه ومراجعه الجامعة لأصوله وفروعه ، كثيرة موفورة ، لم تنقطع سلسلتها منذ ألّف سيبويه « الكتاب » ، حتى العصور المتأخرة المتتابعة ، على حين ضاعت كتب الكوفيين ، اللهمّ إلا نقولا منثورة متفرّقة فى كتب النحو البصرىّ ، لا تُعين على تصوُّر المذهب الكوفى تصوُّرًا شاملا ، وإنما تُذكر على سبيل الموازنة بين الآراء فى بعض المسائل ؛ ولم تكن كتب الفرّاء وثعلب من أئمة الكوفيين متداولة معروفة ، وإنما خمد ذكرها ، وانقطعت أسانيدها ، ولم يُنشر ما نُشر منها كمعانى القرآن للفرّاء ، ومجالس ثعلب ، إلا فى هذا العصر الأخير . ولأن أصحاب المذهب البصرىّ أرحب باعا فى تعميم القواعد وطَرْدها ، بناء على قياسهم المعروف ؛ وذلك موافق لطبيعة المعلّمين والمبتدئين فى تعلُّم العربية ؛ ممن يؤْثرون السُّهولة ، ولا يتعمّقون فى البحث تعمُّق العلماء المحققين .

وأحسنت وزارة المعارف العراقية الإحسان كله ؛ حين طبعت هذا البحث لأوّل مرّة على نفقتها ببغداد . التى ينتمى إليها الدكتور المخزومىّ ؛ والتى يعمل فيها مدرّسا للنحو بكلية الآداب . إلا أن عدد النُّسخ التى طبعتها وزارة المعارف العراقية كان قليلا جدا ؛ بالنسبة إلى الراغبين فى مطالعة البحوث الجديدة فى العالم العربىّ كله ؛ ولذلك رغب إلىّ مؤلّف البحث ؛ بعد نفاد نُسخه ، أن يُستأنف طبعه بمصر الغنية بمطابعها الكبيرة ؛ وأن يزيد فى عدد النسخ المطبوعة ؛ حتى يتمكّن الراغبون فى الكتاب من اقتنائه ، والانتفاع به .

وقد قدّمت الكتاب إلى شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ؛ فتقبّلته أحسن قبول ، واعتمدت طبعه ونشره فى الآفاق العربية ، وأخرجته على هذا المثال المُشرق ، الذى يناسب قدر الكتاب ومؤلّفه .

وقد قمت بتصحيح تجارب الكتاب نيابة عن مؤلّفه ؛ وكان بعض التجارب

يُرسل إليّ فى مدينة « الرياض » قاعدة « المملكة العربية السعودية » ، حيث نُدبت للتدريس بجامعة الملك سعود ، ولم يكن عندى جميع المراجع التى رجع إليها المؤلّف فى بحثه ، فكلما عرض لى اشتباه فى بعض الكلمات التى صُحّفت فى الطبعة الأولى ، اجتهدت فى ردّ بعضها إلى الصواب ، على ماظهر لى ، وتركت بعضها كماجاء فى الطبعة السابقة ؛ على أن ذلك لا يُجاوز موضعين أو ثلاثة فى الكتاب كله .

ومما حرَصت عليه فى هذه الطبعة ، ضبط الأعلام والنصوص القرآنية والحديثية ضبطا كاملا ، كما ضبطتُ مواضع اللَّبْس والاشتباه فى أكثر كلمات الكتاب ، حتى يسهُل على القارئ معرفة الصواب من أوّل نظرة ، دون احتياج إلى مراجعته فى المظانّ اللغوية أو التاريخية أو غيرها .

وإنى إذ أقدّم هذا البحث بهذا التّصدير الموجز ، أشعر بأنى أقدّم للعالم العربىّ أثرا نفيسا جدا ، من آثار أستاذ عالم فاضل محقّق شاب ، أنجبته العراق ، وشاركت مصرنا العزيزة فى تثقيفه وتخريجه ، على أحدث المناهج العلمية وأدقها ؛ وأرجو أن يُكتب بذلك فى الخالدين ؟

٢٧ / ٧ / ١٣٧٧هـ.
١٦ / ٢ / ١٩٥٨م.

مصطفى السقا
بجامعة الملك سعود
بمدينة الرياض

السنة 3 لسانيات عامة
الفوجان: 11 + 7

المدارس النحوية

د. خديجة الحديثي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحديث عن المدارس النحوية يطول، لانه بحث في تاريخ النحو العربي الذي يمتد من منتصف القرن الأول للهجرة الى القرن الرابع عشر، ويشمل بيئات مختلفة كالبصرة والكوفة وبغداد ومصر والشام والأندلس وغيرها من الامصار العربية والإسلامية. وكان للقدماء في ذلك التاريخ فضل لا ينكر فقد تحدثوا عن النحاة وقسّموهم الى طبقات أو ترجموا لهم ترجمة تعتمد على ترتيب اسمائهم في حروف الهجاء، الا انهم لم يفردوا للاتجاهات أو المذاهب أو المدارس بحوثًا ترصد نشأتها وتوضح خصائصها وان جاء كلامهم عليها في اثناء حديثهم عن النحاة أو موضوعات النحو في موسوعاتها المعروفة. وعرف العصر الحديث لونا جديدًا من البحث في تاريخ النحو العربي وصلته بغيره وتبيان خصائصه وسمات اتجاهاته، وكان المستشرقون أول من نبّه الى ذلك وتبعهم العرب فكتبوا في نشأة النحو وتاريخه، وصنفوا في مدارسه وأفردوا بعضها بدراسات فكانت «نشأة النحو العربي وتأريخ اشهر النحاة» و «تأريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري» و «مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو» و «الدرس النحوي في بغداد» و «مدرسة البصرة النحوية» و «المدارس النحوية» و «مدرسة مصر والشام النحوية» وغيرها من الدراسات العلمية الاخرى.

وكان منهج السنوات المتقدمة لطلاب اللغة العربية بكليات الاداب قد افرد ساعات دراسية للمدارس النحوية، فكان هذا الكتاب الذي أعدت كتابته ثلاث مرات لينسجم مع المنهج المقرر وساعات درسه، وهو كتاب أرجو أن يسد حاجة طالما ألحت على الطلبة وهم حائرون بين الكتب المختلفة والاتجاهات المتناقضة. وقد حاولت في هذا الكتاب أن التزم بواقع النحو العربي وأن آخذ الحقائق التي تنير السبيل للطلبة، واعرض المادة عرضًا واضحًا فيه من الدقة والايجاز الشيء الكثير.

بدأت الكتاب بمقدمة عرضت فيها لحقيقة المدارس النحوية أو المذاهب النحوية، وانتهيت الى أن تلك حقيقة لا تنكر وإن اختلفت الاسماء، فالدرس النحوي لم يكن قوالب جامدة أو اتجاها واحدا في بيئاته جميعا وانما اختلف باختلاف البيئات، وكان لكل بيئة طابعها، ولكن ذلك لا يقود الى الاختلاف الكبير ببيئاته أو مدارسه ذلك الاختلاف الذي يولد أنواعا مختلفة من النحو، وهو مالم يقع لان اللغة العربية ظلت محتفظة بأسلوبها الرفيع وبكتابها العظيم وتراثها الخالد.

وجاءت الفصول الأربعة تتحدث عن النحو في بيئات البصرة والكوفة وبغداد ومصر والاندلس والحجاز واليمن والشام والمغرب وهي بيئات عربية شهدت مولد النحو وتطوره، واخرجت رجاله الذين انتشر بعضهم في الامصار العربية والاسلامية الاخرى فكان لهذه البيئات فضل كبير على النحو والادب وعلوم العربية الاخرى منذ القرن الأول للهجرة.

لقد كانت وحدة البحث تفرض أن تكون الفصول الأربعة ذات منهج واحد وهدف متسق، وان لا يكون بينها اختلاف كبير، ولذلك كان كل فصل يبدأ بالكلام على البيئة ونشأة النحو فيها وتطوره، وأهم خصائصه وأشهر رجاله، ثم الوقوف على أشهر الدارسين، فالبصرة مثلاً يقف في قمة رجالها الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والمبرد، والكوفة يقف على رأس نحاتها الكسائي والفراء وثعلب، وبغداد يقف على ذروة رجالها أبو بكر بن الانباري وابن كيسان. أما مصر ففيها من النحاة خلق عظيم وكان الوقوف على أبي جعفر النحاس والسيوطي لانهما يمثلان خلاصة الدرس النحوي فيها. وفي الشام استقر نحاة وردوا اليها وعرفت بهم وكان أبو علي الفارسي وابن جني وابن خالويه يمثلون النشاط النحوي في أوجه. وفي الاندلس كان ابن مضاء القرطبي الذي ثار على النحو المشرقي وأبو حيان الذي اتخذ من المذهب الظاهري منهجاً له في دراسة النحو واللغة. وكان ابن الوزان يمثل البيئة المغربية والدرس النحوي واتجاهه فيها.

وقد كان الاعتماد في هذه الفصول على آثار النحاة أنفسهم وعلى كتب الطبقات والتأريخ، وكان للكتب الحديثة دور في بناء الكتاب ولا سيما ما عرض منها للبحث في الاتجاهات والمناهج النحوية ودراسة الاعلام.

وبعد. فهذا كتاب «المدارس النحوية» اقدمه لزملائي الاساتذة وأبنائي الطلبة لعلهم يجدون فيه ما ينفعهم ويعوضهم عن كثير من الدراسات المطولة والبحوث المتشعبة، والله ولي التوفيق.

السبت: الأول من شوال، الأول من آب ١٩٨١م

الدكتورة خديجة الحديثي
استاذة الصرف والنحو
بكلية الآداب - جامعة بغداد

السنة 3 الفوجان 7+11

مدرسة البصرة النحوية
نشأتها وتطورها

د. عبد الرحمن السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة فى مدرسة البصرة النحوية ، تناولت فيها نشأة النحو فى هذه المدينة ، عندما كان فكرة تتردد فى خيال العلماء ، وأملا يداعب أفكارهم ، وغاية توجه إليها همهم ، وهدفا يقدح من أجله زناد فهومهم .

وتتبعته فى مرباه ، وقد حنا عليه العباقرة من العلماء ، وعكف على دراسته الجهابذة الأجلاء ، وما زالوا به يتناولونه بالرعاية ، ويعالجونه بالتهذيب ، حتى تحقق لهم الأمل ، ودان لهم الهدف ، وتم لهم ما أرادوه من علم تام المعالم ونحو واضح السمات ، يحفظ على اللغة خصائصها ومقوماتها ، ويقى اللسن مزالقها وعثراتها وييسر على الداخلين فى الدين دراسته ، ويسهل للمتعبدين بالقرآن تلاوته ، ويجلى للناشئين فى دار العروبة أسرارها ، ويوضح لهم خصائصها ومميزاتها .

ولقد دفعنى إلى هذه الدراسة قدر للنحو ، وإعجاب بالنحاة .

أما النحو فقدرى له ناجم من قدرى لرسالته ، وإيمانى بعظم خطرها ، وجليل الفائدة المترتبة عليها ، فهو قوام الألسنة ، ودرع اللغة الواقية ، والسياج الذى يقى القرآن من التحريف ، ويدفع عنه غائلة اللحن ، وأكرم بذلك هدفا ، وأعل به غاية .

وأما النحاة فإعجابى بهم إعجاب بالعبقرية الخالقة ، وإجلالى لهم إجلال للملكة المبتكرة ، وإكبارى إياهم لما نلمسه فى آثارهم من دقة فى الملاحظة ، وصبر فى التتبع والمدارسة ، وإحاطة بمسائل النحو ، وإلمام بما دق وجل من شئونه ومقاصده .

ولقد وقفت بالدراسة عند أواخر القرون الثلاثة الهجرية الأولى ـ لم أتجاوزها إلا إذا دعت الضرورة ، أو اقتضى ذلك استكمال البحث ـ تلك القرون التى شهدت نشأة النحو وليدا ، وعاصرته فتيا ، وانتهت به راشدا قويا ، ثم أسلمته لما خلفها من أجيال ، تهذب منه ، أو تغير فيه ، أو تواثم بينه وبين ما عرف من

مذاهب ، وما جد من حاجات ، فتأخذ منه أو تدع ، وتقوى منه أو تضعف ، وفقا للضرورة الداعية ، وترجيحا للرأى الأصلح .

ولقد سرت فى بحثى سيراً زمنياً تاريخياً ، فبعد أن ألقيت بعض الضوء على اللغة العربية فى تطورها وامتزاجها ، وعلى مدينة البصرة فى تمصيرها ورجالها ، تابعت النحو منذ نشأته ، وسايرته فى مدارج نموه وتطوره ، وجلوته عاما مجملا ، ثم عدت إليه شارحا مفصلا ، فذكرت الأدلة التى رجع إليها البصريون فى تأسيس نحوهم ، والمصادر التى اعتمدوا عليها فى وضع قواعدهم ، وتتبعت علل النحو فى مراحلها المختلفة ، وعرضت لرأى النقاد من النحاة فى أهمية هذه العلل وصدقها ، ثم عرجت على العامل فى النحو ، وذكرت الإعراب والبناء ، وأثر الإعراب فى المعنى ، وما ذهب إليه بعض الباحثين من نفى هذا الأثر ، وما تمسك به آخرون من حجج وأدلة ، وتدرجت مع المصطلحات النحوية منذ تكلم علماء اللغة فى النحو ، حتى أصبحت هذه المصطلحات ثابتة خالدة وما اعترى بعضها من تغير ، وما أتى على بعضها من فناء .

ولم يكن هناك بد من أن أعرض لاختلاط النحو بغيره من فنون العربية ، وما تركه فيه هذا الاختلاط من أثر ، وما يجب أن ينحى عنه من أنواع الدراسات حتى تخف مؤنته ، ويصفو نهجه ، ثم بينت الطرق التى كانت تتبع فى دراسة النحو والمدارس التى كان يؤمها الدارسون ، والكتب التى ألفت فى هذا العصر المتقدم ، والطريقة التى كان يتبعها المؤلفون ، وعرفت بالأعلام من رءوس هذه المدرسة ، واقتصرت فى التعريف بهم على أشهر رجالهم ، اكتفاء ببعضهم عن التحدث عن جميعهـــم .

ولما كانت الكوفة قرينة البصرة ، ولما كانت مسائل الخلاف بينهما قد تعددت ، والكتب فيها قد ألفت ، كان لابد من أن أعرض لهذه المسائل موضحا لها ، مجليا وجه الصواب فيها ، ذاكرا ما اعتمد عليه كل فريق من أدلة وما كان لنهجه من أثر فى هذا الخلاف .

ذكرت ذلك وذكرت غيره مما اعتقدت أنه يمس موضوع الرسالة مساً قوياً ، وأن لا غنى عنه لمن يقرأ هذا البحث ، لكي يخرج بفكرة واضحة ، ونتيجة صحيحة .

وقد تتبعت ذلك كله باحثاً ممحصاً ، دارساً محققاً ، خلوت من المسائل ما كان غامضاً ، وأوضحت منها ما كان خافياً ، ونفيت عن بعضها ما علق بها من شكوك ، وفندت في بعضها ما وجه إليها من تهم ، ومزت صحيح الآراء من باطلها ، ونقيها من زائفها ، لم يدفعني إلى ذلك تعصب لرأي ، أو انحياز لمذهب ، فقد كانت الحقيقة هدفي ، والوصول إليها رائدي .

وقد ألزمت نفسي — قدر طوقي — أن أتبع المنهج العلمي ، فلا أقر إلا ما قام عليه الدليل ، ولا أعتقد إلا ما أيدته القرائن ، ولا أذكر إلا ما صحت نسبته ، وثبت عن الرواة صدقه ، فلم أتلقف الشائعة الطائرة فرحاً بها ، بانياً عليها ، معجباً بمطلقها ، ساعياً بجد وراء مروجها .

وقد كان لي في أساطين هذه المدرسة أسوة حسنة ، واتخذت منهم قدوة صالحة ، فلم أتعجل البحث ، ولم يعجلني الزمن ، وكنت كما قال المبرد « لربما رويت في الحرف سنة لتصح لي حقيقته » . فلم يكن الانتهاء من الرسالة هدفاً ، بقدر ما كان البحث العلمي متعة ممتعة ، ولذة خالصة ، ولست أزعم مع هذا أني قد بلغت غاية الكمال ، فالكمال ليس في طوق البشر ، ولكني أستطيع أن أزعم ، وأنا مطمئن ، أني قد بذلت غاية الوسع ، وأنفدت جهد الطاقة .

ولقد وجدت من بعض من يمتون لي بآصرة قوية ، وبعض من تربطني بهم صلات علمية ، وبعض من دفعني البحث إلى الاتصال بهم ، وطلب العون العلمي منهم ، ما مهد لي السبيل ، ويسر لي الطريق ، وأعانني علي أن أتابع العمل ، وأفرغ الجهد ، دون أن تقفني عقبات ، أو تحول بيني وبين الوصول إلى الغاية عوائق .

فإليهم جميعاً أقدم شكري المكرر ، وثنائي الجميل .